عَلَىٰ مَا أرىٰ، ونَفسِي مُتَوقِّعةٌ أمراً يَنزِلُ بِنَا، فَطُولُ بُكائِي وَدَوَامُ حُزنِي لِذٰلِكَ.

فقلت لها: فَلِم تَعجَلِينَ البُكَاءَ؟ دَعِي الأمرَ حَتَّىٰ يَقَعَ.

قالت: إنَّ نَفسِي تَأبىٰ أن تَسكُنَ مَعَ تَغيُّرِ مَا تَعلَم.

قال: فارتَحلتُ مِن عِندِهم إلىٰ هِشَام، ثُمَّ رَجَعتُ، فَمَررتُ بِهِم فَإذَا الأعرابُ والأكْرَادُ قد أغَارُوا عَلَيهِم، فَقَتَلُوا الدُّهقانَ وَوَلَدَه، وأخذُوا أموالَهُم، وأخرَبُوا ضياعَهُم، فأتَيتُ المَرْأةَ فتوجعتُ لَها مِمَّا نَزَلَ بِهِم، فقالت: أبا فُلَانٌ قد حَلَّ بِنَا مَا كُنَّا نَتَوقَّعُ، فَهل عِندكَ مِن شَيءٍ؟

فقال يحيىٰ بن خالد: وَيحكَ، فإنَّما طَالَ فِكرِي للأمر الَّذي نَحنُ فِيه[1].

قال: فَمَا لَبِثُوا أن حَلَّ بِهِم مَا حلَّ[2].

---

(١) قلت: لقد كان الوزير يحيى بن خالد البرمكي ذا رأي سديد، وعقل راجع، فيه خير وصلاح، فإنه كان يقول لأبنائه: «اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون».

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠ / ٢٠٥): «وقد كان يحيى بن خالد هٰذا يجري على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده، يقول: اللهم إنه قد كفاني المؤنة، وفرغني للعبادة، فاكفه أمر آخرته، فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان».

(٢) أي: حلَّت بهم المهلكة على يد هارون الرشيد التي عرفت بنكبة البرامكة، عندما بدأ فقتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ثم دمر ديارهم ودرس آثارهم، وذهب بصغارهم وكبارهم، وكان ذٰلك سنة (١٨٧هـ).

وقد إختلف في سبب ذٰلك على أقوال ذكرها ابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما. انظر تفاصيل ذٰلك في «البداية والنهاية» (١٠ / ١٨٩ ـ ١٩٤).

قلت: وقد بلغ من سوء حالهم أن دخلت زوجته أم جعفر ـ واسمها عبادة ـ على أناس في يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به، فسألوها عمَّا كانت فيه من النعمة؟ فقالت: لقد أصبحت في مثل هٰذا اليوم وإن على رأسي أربع مائة وصيفة، وسبحان مالك الملك، يؤتي الملك =